١٨

# علاقة الإمام محمَّد بن عبد الله الخليلي بالسياسي سليمان الباروني ودورها في نهضة عُمان

**د. هادية صالح مشيخي**
**المعهد العالي للعلوم الإنسانيَّة، جندوبة، تونس**
mchikhi.hedia@gmail.com

**ملخَّص:**

تسعى هذه الدراسة إلى الكشف عن العلاقة التي تجمع الإمام محمَّد بن عبد الله الخليلي بالمفكر السياسي المغاربي سليمان الباروني الذي تربطه بعُمان علاقات وثيقة منذ أن كان طالبا في مصر حيث كان ينادي بضرورة توحيد الإمامة والسلطنة بعد أن تفطن إلى الدسائس الإنجليزية التي كانت تسعى إلى إحداث الفتن بين السلطنة والإمامة والشيوخ المجاورين لهما قصد المحافظة على مصالحها الاستعماريَّة في الخليج العربي والهند. ويبرز البحث خصائص الفكر الإصلاحي الذي يجمع بين الشخصيتين. كما يرصد البحث تطور العلاقة بينهما منذ دخول الباروني مسقط وإلى سفره عنها إلى العراق.

كلمات مفتاحيَّة: الإمام الخليلي. سليمان الباروني. علاقات. إصلاحات، وثيقة العهد.

**مقدِّمة:**

جسور التواصل بين عُمان وبلاد المغرب تعود إلى فترات تاريخية سابقة، فقد كانت الجرائد والمجلات المغاربية تتابع أخبار عُمان وتنشر المقالات التي تتعلَّق بشؤونها ونذكر عل سبيل المثال أبا إسحاق اطفيَّش في مجلته "المنهاج" وأبا اليقظان في جرائده "وادي ميزاب" و"ميزاب" و"المغرب" و"النور" و"البستان" و"النِّبراس" و"الأمَّة" و"الفرقان"، وسليمان الجادوي في جريدتي "المرشد" و"مرشد الأمَّة"، والجعايبي في جريدة "الصواب". كما توثقت هذه العلاقة بين المغاربة والعُمانيِّين من خلال تواصل السياسيين الذين كان لهم دور في الحياة السِّياسيَّة العُمانيَّة وأثر في الحركة الإصلاحيَّة. ويعد السياسي المغاربي سليمان بن محمَّد بن يحيى الباروني (١٨٧٣-١٩٤٠م/ ١٢٩٠- ١٣٥٩هـ) الذي تقلَّد عديد المناصب زمن الدولة العثمانية في طرابلس الغرب والآستانة والعراق إحدى هذه الشخصيات.

تتناول الورقة العلاقة التي ربطت الإمام محمَّد بن عبد الله الخليلي بسليمان الباروني والجهود التي قاما بها لأجل تحديث عُمان وتطويرها، وقبل الخوض في علاقة الإمام محمَّد بن عبد الله الخليلي (حكم ١٩٢٠-١٩٥٤م/ ١٣٣٩- ١٣٧٤هـ) بالباروني نرى من الضروري الحديث عن علاقة الباروني بعُمان المتقدمة زمنيا على علاقته بالإمام الخليلي والتي تعود إلى أسباب مذهبية وأخرى فكرية سياسيَّة تتعلَّق بتوجُّهه الفكري.

**علاقة الباروني بعُمان:**

من المعروف تاريخيا أن إباضيَّة عُمان يمثلون بعد انقراض الدَّولة الرستميَّة التي أسَّسها عبد الرحمن بن رستم بالمغرب الأوسط (الجزائر) والتي حكمت مدَّة قرن ونصف تقريبا (١٤٧عاما) الدَّولة الإباضيَّة الوحيدة التي ما زالت قائمة في البلاد العربيَّة والإسلاميَّة إلى اليوم، وهي تنحصر في سلطنة عُمان. ويفخر العُمانيُّون بأنَّهم لم يخضعوا في يوم من الأيَّام لا للأمويِّين ولا للعبَّاسيِّين ولا للعثمانيِّين، وبأنَّهم عرفوا أمجادا في المشرق وفي المغرب على حدٍّ سواء. فبلاد عُمان في نظر الباروني "مستقلة منذ ألف وثلاثمائة سنة"[١]

١) أبو اليقظان، إبراهيم: سليمان باشا الباروني، ج ٢، ص٦.

بما أن الباروني إباضي طرابلسي (ليبيا) ومن جبل نفوسة تحديدا، فإنَّه يشترك في المذهب مع أهل عُمان. وإن الانتماء إلى المذهب نفسه جعله يُمتِّن العلاقة ويَمدُّ جسور التواصل بين أصحاب المذهب الموجودين في منطقتين تختلفان جغرافيا وتاريخيا (واحدة في المغرب والثانية في المشرق). لكن في الحقيقة لا يمكن اعتبار الاشتراك في المذهب السبب الأوحد لربط الصلة بعُمان خاصَّة أن الباروني مفكر سياسي له خبرة واسعة في المخططات السِّياسيَّة الاستعماريَّة ودراية بواقع العالم الإسلامي.

**رؤية الباروني السِّياسيَّة ودورها في تمتين علاقته بالإمام الخليلي:**

إنَّ إيمان الباروني بالجامعة الإسلاميَّة التي اتخذها عبد الحميد الثاني شعارا لدولته، والتي تدعو إلى وحدة المسلمين بغض النظر عن عرقهم ومذاهبهم وانتماءهم الجغرافي، هو الذي دفع هذا الإباضي المسلم إلى أن يتحوَّل إلى مسلم عثماني إباضي ساع إلى استغلال ما له من رصيد عقدي عند أقرب المسلمين إليه، ويدعوهم فيها إلى ربط مصيرهم الاستراتيجي بالدولة العثمانيَّة الاتِّحاديَّة خاصَّة أمام تنامي الخطر الغربي الذي يسعى إلى ابتلاع ما تبقى من العالم الإسلامي بعد أن سقطت أغلب الأقطار تحت الاستعمار. وقد وجَّه الباروني إلى السلطان فيصل بن تركي (حكم: ١٣٠٦-١٣٣٢هـ / ١٨٨٨-١٩١٣م) رسالتين سنة (١٩١٠م/ ١٣٢٨هـ) متجاوزا بذلك الخلافات بين السلطنة والإمامة، التي لا تزن شيئا كثيرا، إذا ما قيست إلى الخطر الغربي الذي يهدِّد العالم الإسلامي. يقول في إحدى الرسالتين:

"وإنِّي في شغل شاغل في التفكير فيما يضمن استقلال دولتكم ويحفظ بلادكم من الأعداء، وقد كتبت للملك المعظم مولانا السيِّد فيصل بعض آراء وأفكار وأخبار أرجو أن تحلَّ لديه محلَّ القبول. ولا يمكنني الآن بيانها، والذي أراه واجبا على العلماء والعقلاء منكم إيقاظ رؤساء القبائل، وعامة الناس في كلِّ جهة، ونصحهم إلى الانقياد للملك والاتحاد والتعاون والتعارف وترك الفتن، مع بيان ما يهدِّد بلادكم من الخطر وما للأعداء من القوَّة والطمع فيهم وفي دولتهم إلى أن يدركوا ذلك جليًّا فينقادوا، ويحذِّرهم من التعدِّي على رعايا الدول الأوروبية إن كانت عندهم؛ فإنَّ بمثل ذلك احتلت فرنسا تونس والجزائر، وبذلك تحاول الآن احتلال

فاس وهكذا فعلت إنكلترا في مصر وغيرها"[١].

لقد سعى الباروني إذن إلى تمتين علاقة السَّلطنة العثمانيَّة بسلطان مسقط وعلماء الإباضيَّة لما كان يرى من خطورة النزاع الداخلي في زمن كان فيه العالم الإسلامي جميعه تَتَهدَّده قوَّتان عظميان هما بريطانيا وغريمتها فرنسا، وفعلا فقد كانت مسقط من أهمِّ الموانئ في تلك المنطقة من الناحتين الاستراتيجيَّة والتجاريَّة؛ نظرا لموقعها المهمِّ في الزاوية الشماليَّة الشرقيَّة من الجزيرة العربيَّة على بحر عُمان فهي تقع على "بعد ٣٠٠ ميل من رأس الحد في أقصى الزاوية الشرقيَّة من جزيرة العرب حيث ينحدر الساحل جنوبا إلى عدن ومدخل البحر الأحمر (...) وعلى بعد ٨٨٠ ميلا من كراتشي و١٣٦ ميلا من جاسك و١٤٨ ميلا من شاهبهار"[٢].

**وضع عُمان السياسي زمن وصول الباروني إليها (١٣٤٤هـ/١٩٢٥م):**

زامن نزول الباروني على السلطان تيمور بن فيصل (حكم: ١٣٣٢-١٣٥١هـ / ١٩١٣- ١٩٣٢م) بمسقط سنة ١٣٤٤هـ/١٩٢٥م تأزُّم العلاقات بين عُمان الإماميَّة التي يحكمها الإمام محمَّد بن عبد الله الخليلي من جهة، والإنجليز وملك المملكة العربيَّة السعوديَّة عبد العزيز بن سعود (١٢٩٣-١٣٧٣هـ/ ١٨٧٦-١٩٥٣م) من جهة ثانية، فقد عزمت بريطانيا على سلخ الجزء الشمالي من عُمان وتمليكه لأجنبي باسم ملك عربي حتَّى تحافظ على مصالحها، وشاع خبر معاهدة ثلاثية بين الإنجليز وتيمور بن فيصل سلطان مسقط وعبد العزيز آل سعود لغزو عُمان الإمامة[٣].

تركت هذه الاتفاقية الأثر السيئ في نفس الباروني؛ فقد استنكر ما أقدمت عليه هذه الدول خاصَّة المملكة العربيَّة السعوديَّة؛ لأنَّ مخطَّط الإنجليز الاستعماري كان أمرا معلوما في حين أن السعوديين الذين يشتركون مع العُمانيِّين في الدين واللغة والمصير ليس لهم عذر في عقد هذه المعاهدة.

---

١) الباروني، زعيمة: الباروني، صفحات خالدة من الجهاد، ص١٥٦.

٢) الداود، محمود علي: محاضرات عن الخليج العربي والعلاقات الدولية ١٨٩٠ - ١٩١٤، ص٨٧.

٣) اطفيَّش، أبو إسحاق: الدسائس في جزيرة العرب، ص١٦٦-١٦٧.

ركز الباروني على المادة السادسة من المعاهدة التي تتعلَّق بعُمان الإمامة التي أصبحت هدفا لإنجلترا التي تسعى إلى ربط مستعمراتها بحرا من خلال تأسيس مطار على سواحل خليج فارس لتحليق الطيَّارات بين عُمان والهند يكون متمِّما للخطِّ الممتدِّ بين الهند والعراق وفلسطين ومصر.

اعتبر الباروني أنَّ الملك السعوديَّ لم يطَّلع على موادِّ المعاهدة التي أبرمها مع الإنجليز، وأنَّه يجهل محتوى البنود بسبب إظهاره الثِّقة المطلقة برجال بريطانيا في الوقت الذي يجدر به التثبُّت؛ لأنَّ هذه المادة صرَّحت بوجود معاهدة بين بريطانيا وإمامة عُمان، في حين أنَّ الواقع غير ذلك؛ لأنَّ عُمان لم تعقد اتفاقية مع بريطانيا، فكان الواجب على عبد العزيز آل سعود "طلب الاطلاع عليها ليبني أموره على يقين ولا شك أنَّه لا يجده؛ لأنَّه لا معاهدة لبريطانيا مع مملكة عُمان"[١].

أمَّا فيما يتعلَّق بموقف الباروني من سلطان مسقط تيمور بن فيصل فقد رأى أن إشراكه في هذه المعاهدة هو مخطَّط إنجليزي يهدف إلى التمركز في المنطقة؛ لأنَّ السلطان قد اعترف بسيادة الإمام في معاهدة السيب سنة ١٩٢٠م (١٣٣٩هـ)، واتفق الطرفان على المساواة في السيادة، وعدم تدخُّل كل طرف من الطرفين- السلطنة والإمامة- في شؤون الآخر. إضافة إلى أنَّ كلاًّ منهما قد استجاب إلى مبدأ توحيد دولة الإمامة والسلطنة الذي اقترحه الباروني حين كان في مصر وسعى إلى تجسيده عندما وصل إلى مسقط.

هذان الأمران جعلا الباروني يستبعد اشتراك السلطان في المعاهدة، فكتب: "وستسمعون إن شاء الله باتحاد كلمة هذه المملكة حتَّى مع عظمة السلطان بعد أن شتتتها الدسائس والأغراض"[٢].

يرى الباروني أنَّ هذه الدسائس قد حاكتها إنكلترا قصد إحداث الفتن بين السلطنة والإمامة والشيوخ المجاورين لهما حتَّى تتمكَّن من التدخُّل في شؤونهم الدَّاخليَّة بدعوى حفظ الأمن والسلام، ثمَّ المحافظة على مصالحها الموجودة في الخليج العربي والهند. ويرى الباروني كذلك أنَّ السلطان تيمور بن فيصل بريء

١) ردّ وتعليق، جريدة وادي ميزاب، ٢٥ أوت ١٩٢٨، السنة ٢، عدد ٦٨، ص١.
٢) أبو اليقظان: سليمان باشا الباروني، ج ٢، ص٤.

من هذه المعاهدة "ولا شكَّ في أنَّه إذا حضر من ظفار يعلن براءته من هذه المعاهدة على صفحات هذه الجرائد إذا كان بريئا منها كما هو منتظر"[1].

إن موقف الباروني من السياسة الاستعماريَّة بصفة عامَّة واستشرافه لمخططاتها التقسيمية جعلت العلاقة بينه وبين الإمام الخليلي قائمة قبل هذه الفترة؛ لأنَّ الإمام حينما وصل الباروني إلى مسقط أرسل إليه رسالة ترحيبا بقدومه، جاء فيها: "من إمام المسلمين محمَّد بن عبد الله بن سعيد الخليلي إلى أخيه ذي الشرف الباذخ والمجد الشامخ، المجاهد في سبيل الله، الحامي لدينه سليمان بن عبد الله الباروني، أمَّا بعد فإنَّا نحمد الله إليك، لا زلت أخانا محافظا شرف حريتك، ساعيا في عز استقلال بلادك ألا وأن أعلام مجدك منشورة وسيوف عدلك منشورة فلله درك حيث أنت، هكذا هكذا وإلاَّ فلا لا، الداعي إلى تحرير الكتاب إليك، بعد إهداء السلام والتحية والإكرام، إعلامك بأن إخوانك أهل عُمان مسرورون بسلامتك وصحتك، مستبشرون بقدومك وطلعتك، وقد وجهنا إليك هذا الرسول طالبين منك الوصول على بركة الله زائرا إخوانك مشرفا أوطانك"[2].

**التقارب الفكري بين الباروني والإمام محمَّد بن عبد الله الخليلي:**

إن احترام الإمام لسليمان الباروني يعود إلى ثبات هذا الأخير على مواقفه ودفاعه المستميت عن استقلال بلاده ووحدة العالم الإسلامي والسعي إلى إرساء نظام إصلاحيٍّ تحديثيٍّ يمكَّن من تطويره. وعلى ما يبدو أن هذا الالتزام يجد صدى في نفس الإمام الذي يحمل نفس المبادئ، وهو ما سهَّل عمليَّة التقارب بين الشخصيَّتين، وجعلهما يتَّفقان وينخرطان فيما بعد في المشروع التحديثي دون صعوبات.

يشترك الإمام الخليلي مع السياسي سليمان الباروني في القول بضرورة الوحدة ومنع التَّدخُّل الأجنبي، وقد تُوِّجت مجهودات الشخصيتين باستجابة مشايخ شمال عُمان وتأكيد وحدتهم مع الإمام. كما انعقد في شهر أبريل سنة ١٩٢٥م

١) المرجع نفسه، ص٥.
٢) المرجع نفسه، ص٢٠٩.

(١٣٤٤هـ) مؤتمر في حصن بهلا غرب نزوى بأمر الإمام الخليلي حضره العلماء وقواد الجيش ورؤساء القبائل، وكان من بينهم الباروني، وقد تداولوا فيه التدابير الواجب اتخاذها إزاء مركز دولة عُمان الشمالي الذي كان مسرحا للدسائس الأجنبية.

إنَّ أكثر ما كان يخشاه أهل عُمان هو أن يهاجمهم عدو جهة شمال الإمامة، برًّا وبحرا، فكانت الأنظار تتَّجه دائما إلى مدن دبي والشارقة؛ باعتبارهما خليجا يصلح لأن يكون مرسىً لأكبر أسطول بحري. إضافة إلى أنَّه يعدُّ مدخل الخليج العربي الفارسي فإذا عُمر يكون بابا مغلقا على ما وراءه إلى البصرة ثغر العراق. وقد كانت عُمان منذ القديم لا تغزى برًّا إلاَّ من تلك الجهات لقربها من نجد والعراق.

إنَّ الخوف على البلاد من الاستعمار دفع بلاد عُمان ورؤساء قبائلها إلى الالتفاف حول الإمام الذي كان يشترك مع الباروني في رؤيته السِّياسيَّة الداعية إلى الاتحاد قصد مجابهة الأخطار المحدقة بالمنطقة. وقد تمكن الإمام بفضل سياسته الجامعة من تجاوز حالة التشتُّت، وأسهم في إيقاف حالة الحرب القائمة بين القبائل باستمرار، والحدِّ من عصيان الرؤساء؛ لأنَّ الخطر الخارجي يفترض تجميع القوى والنأي عن التناحر القبلي وتجاوز الخلافات الضيقة. يقول أبو اليقظان: "أدرك الجميع مضار الانقسام وأحسُّوا بما يحيط بهم من الخطر برًّا وبحرا، وأعلن القابضون على الحصون أنَّهم مستعدُّون لمن يتصدَّى للدفاع"[١].

كانت نتيجة هذه السياسة استجابة الجميع إلى دعوة الإمام القائمة على ضرورة الاتحاد؛ لأنَّ توحيد كلمة البلاد يجنبها الفتن، ويمنع الأجانب من التَّدخُّل في شؤونها، ويضمن استقلالها الداخلي والخارجي.

لم يقتصر الباروني في نشاطه السياسي على السعي إلى توحيد القبائل داخل دولة الإمامة فقط، بل عمل على توحيد سياستي السلطان تيمور بن فيصل والإمام الخليلي، وقد ساند الباروني فكرة تكوين حزب (الاتحاد العُماني) للتوفيق بين دولة الإمامة والسلطنة وتوحيد الدولة من قطر إلى ظفار التي دعا إليها أصحاب النفوذ والفكر في أكثر جهات وعملوا على تجسيدها.

١) المرجع نفسه، ص٦.

نجحت هذه المساعي؛ نظرا لتوفر أرضية ملائمة؛ وهو تفهم الأطراف المعنية، والاشتراك في الهدف وهو حماية المنطقة من الاستعمار الغربي، لا سيما أن الإمام قد استوعب درس ما حصل لمنطقة المشرق والمغرب حيث سقطت أغلبها تحت الاستعمار الفرنسي والإنجليزي. يقول أبو اليقظان: "فكانت الكلمة واحدة والخطة واحدة والهدف واحد ولو اختلفت الوسائل وتباين الموقف على أنَّ موقف سلطنة مسقط نفسها لا يزال حافظا لاستقلاله الذاتي ولم يكن لأجنبي في نفس الأمر والواقع إلاَّ الإشراف البعيد على ما يتبادر"[1].

**موقف الإمام الخليلي من إدارة الباروني لشؤون الدولة والاحتجاجات عليها:**

نظرا إلى أهميَّة آراء الباروني السِّياسيَّة وتوافقها مع أفكار الإمام الخليلي الإصلاحيَّة فوَّض الإمام الخليلي إلى الشيخ الباروني مهمة تنظيم الدولة سنة ١٩٢٦م (١٩٤٥هـ). وهذا التفويض الذي حظي به الباروني بعد سنتين من دخوله عُمان يعد تتويجا للعلاقة المبنية على الثقة بينه وبين الإمام واشتراك الشخصيتين في النظرة إلى مستقبل عُمان. ونص أمر التفويض هو:

"أمر تفويض الباروني إدارة مملكة عُمان. من إمام المسلمين محمَّد بن عبد الله الخليلي إلى جماعة المسلمين ليعلم الحاضر الغائب. إنِّي فوَّضت الأمر في تنظيم المملكة تنظيما صالحا للشيخ الباروني (كذا) فبيده الملكيَّة والعسكريَّة والماليَّة والسياسة الدَّاخليَّة والخارجيَّة فمن يخالفه أو يقف في سبيل أعماله الإصلاحيَّة يعاقب ولا يلوم إلاَّ نفسه"[2].

كان التفويض شاملا لكل قطاعات الدولة، وهذا يعكس قدرة الباروني على إدارة شؤون الدولة بما يمتلكه من خبرة سياسيَّة ودراية في تسيير الأمور. كما يؤكِّد ثقة الإمام المطلقة في شخص الباروني والنزعة الإصلاحيَّة التي يتمتَّع بها؛ فلولا إيمانه بضرورة إصلاح وضع الدولة وفق أسلوب عصري يطورها لما اتخذ قرار تولية الباروني.

---

١) المرجع نفسه، ص٢٤.

٢) مقال: سليمان باشا الباروني يعيِّن وزيرا لمملكة عُمان، جريدة وادي ميزاب، عدد ٤ السنة الأولى، ٢٢ أكتوبر ١٩٢٦، ص١.

كان قرار الإمام إذن نتاج فكر يؤمن بالتحديث قصد مواكبة التَّطوُّر الحاصل آنذاك ووعي بحالة عُمان التي كانت تتطلب جهودا كبيرة لإصلاحها خاصَّة في الدواخل. كما كان نتاج رؤية سياسيَّة استوعبت السياسة الاستعماريَّة نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. فقد أدرك الإمام الخليلي تماما سياسة الدول المستعمرة التي تتخذ من مسألة التحديث ذريعة كي تتمكن من استغلال الدول الضعيفة والتَّدخُّل في شؤونها الدَّاخليَّة قصد استنزاف خيراتها.

إن الحكمة السِّياسيَّة قادت الإمام إلى التنبُّه إلى المخطط الاستعماري وكيفية مجابهته، وحتى يجنب دولته هذا الخطر انخرط في عمليَّة التحديث موكلا الباروني هذه المسؤولية فأغلق بذلك منافذ تدخل القوى العظمى في شؤون مملكته.

وقد كان الباروني عند تسلمه مهام تنظيم الدولة وفيا لأمور ثلاثة: مبادئه الإصلاحيَّة التي يؤمن بها، والجامعة الإسلاميَّة التي تتطلب منه الحفاظ على استقلال واحد من الأقطار الإسلاميَّة وتطويرها، ومساندته لأصحاب مذهبه.

بدأ الباروني عمله في سمائل بالاهتمام بوزارة الحربية والإدارة العسكرية، فنظَّم دفاتر حصر فيها الذخائر الحربية، ودعا إلى ضرورة تدريب الجيش تدريبا عسكريا حديثا. ثمَّ نظَّم المالية إذ كانت الزكاة هي مورد البلاد الوحيد (الجباية الشَّرعيَّة)، وتولى بنفسه محاسبة المسؤولين عن إدارة أملاك بيت المال وجُباة الزكاة وأموال الأوقاف التي استأثر بوارداتها المشرفون عليها فكان لا يصل إلى صندوق الإمام إلاَّ الشيء القليل، وقد حفظ هذه الأموال في صندوق واحد لا يصرف منه إلَّا بأمر مصدَّق عليه من الإمام[١]. كما توصَّل الباروني بعد مفاوضات مع رجال الأعمال والتجار في مسقط وعُمان إلى تأسيس شركة وطنية لتسيير السيَّارات من مسقط إلى سمائل ومنها إلى نزوى والشرقيَّة. لم يهمل الباروني قطاع الفلاحة فعمل على جلب آلات الريِّ الحديثة عوضا عن آلات الزجر القديمة وإحداث بئر ارتوازيَّة؛ لأنَّ الماء موجود بكثرة في باطن الأرض[٢]. وهو ما يُمكِّن الفلاَّحين من استغلال المياه الجوفيَّة.

١) أبو اليقظان: سليمان باشا الباروني، ص٢٠.

٢) مقال: أبناء عمان، وادي ميزاب، عدد ٥٧ السنة الثانية، ١٧ نوفمبر ١٩٢٧، ص٢.

أمَّا فيما يتَّصل بالجانب المعرفي، فقد شرع الباروني في تأسيس مدرسة كبرى بسمائل أولاها عنايته حتَّى تسير على نظام عصري وطراز حديث وعزم على جلب أساتذة ومعلمين من مصر أو العراق أو بقيَّة عواصم الإسلام للتدريس بها، ومنها يتخرَّج مدرِّسون لمدارس تنشأ في جميع جهات الدولة[1]. وذلك إيمانا منه بدور التعليم في الارتقاء بالشعوب من حالة الجهل والأمية إلى سُلَّم المعرفة والتَّطوُّر.

أمَّا فيما يخصُّ العلاقات الخارجيَّة فقد دعا الباروني إلى اتِّباع سياسة الحياد مع الدول الأجنبيَّة والمسلمة، خاصة الواقعة على حدود عُمان؛ حتَّى تتجنَّب خطر الأولى وتضمن عدم موالاة الثانية لها في حالة الحرب. كما اتَّخذ إجراءات جمركية فأحدث مراكز للجباية عن البضائع الأجنبيَّة. لكن بقي الاهتمام بالإصلاحات الدَّاخليَّة أكثر من الاهتمام بالأمور الخارجيَّة؛ لأنَّ وضع الدولة حينها تطلب ذلك.

أولى الباروني مشروعه الإصلاحي الذي شمل كل القطاعات اهتماما بالغا رغم حالة المرض التي كانت تعاوده بين الحين والآخر. فكان يقضي "جلّ أوقاته بعد إسناد الأمر إليه بين مذاكرات مع حضرة الإمام وبين تحضير المسودات وإملائها على كاتبه وإرسال نسخ مَّما أتَّم تنظيمه في سمائل إلى الولاة والمأمورين في الجهات الأخرى"[2].

**موقف الإمام من تنظيمات الباروني الإصلاحيَّة:**

كان الإمام يساند إنجازات الباروني ويدعمها؛ لما تكتسيه من أهمية بالغة في تحديث المجتمع العُماني، ولما تجده هذه الإصلاحات من صدى إيجابي في نفسه؛ لأنَّه يؤمن بضرورة تغيير البلاد العُمانيَّة في جانبها الاجتماعي والسياسي والاقتصادي فيضمن بذلك أمرين: أولهما الارتقاء بالدولة ومحاولة إلحاقها بركب الحضارة المعاصرة، وثانيهما تجنب استهداف القوى العظمى التي تتخذ من التحديث وسيلة للتدخل في شؤون الدول الضعيفة. وكان الإمام يطلب الباروني حتَّى في تنقُّلاته التفقدية خارج عاصمة الإمامة، ويتشاور معه في الأمور المتعلقة بها، وهذا يعكس ثقته في آراء الباروني ورضاه عن أدائه السياسي. كما يبين أهمية

---

١) المرجع نفسه، ص٢.

٢) أبو اليقظان، إبراهيم: سليمان باشا الباروني، ص٣٠-٣١.

مواقف الباروني بالنسبة إلى الإمام. خاصَّة أن الباروني الذي عرف بالالتزام كان يلبي الدعوة ولا يرفض مرافقة الإمام حتَّى في حالات مرضه. يقول الباروني في رسالة أرسلها إلى هاشل بن راشد المسكري: "رغم ضعف جسمي من المرض، لم يعذرني الإمام -أعزه الله- فأمرني بالتشرف بصحبته إلى الجهة الغربية من عُمان لتفقد أحوالها"[١]. فإن كانت إصلاحات الباروني قد وجدت ترحابا وقبولا في نفس الإمام، فهل انسحب هذا الأمر على بقية السكان؟

**صدى إصلاحات الباروني لدى الشعب العُماني:**

أثارت الإصلاحات التي اعتمدها الإمام الخليلي والباروني للنهوض بوضع الدولة ردود فعل متباينة تراوحت بين التأييد والمعارضة. مثَّل الفئة المؤيِّدة: المثقَّفون وعامَّة الشعب، وهم مثل الإمام يرون ضرورة تغيير أوضاع السلطنة تغييرا إيجابيًّا على مستوى المجتمع، والصحة، والتعليم، والسياسة الخارجيَّة، ويدعون إلى تقديم مصلحة العامَّة على المصلحة الخاصَّة، وينادون بضرورة إلغاء الامتيازات.

لاقت إصلاحات الباروني ترحابا بين من وصفهم الباروني "بالمستنيرين وأرباب المدارك الواسعة"، ورجال السياسة والأدباء وعامة الشعب؛ لأنهم فكروا في مستقبل الدولة، وساندوا الإمام في مشروع تنظيمها. كتب أبو اليقظان في هذا الشأن: "أمَّا سواء الأمَّة فلا تسأل عن ابتهاجهم وتعشمهم الخير في مستقبلهم الزاهر وأملهم في تقدُّم أمَّتهم وإرجاع مجدها الشامخ"[٢]. وعت هذه الفئة بأهميَّة الإصلاح ومدى مساهمته في نشر الوعي، وتنشيط الاقتصاد، والانخراط في حركة التقدُّم، واحتفلت بإنجاز الباروني الذي "تفتحت به أمامهم آفاق من الآمال الواسعة الكبيرة في حياة دولتهم وأمَّتهم على يد هذا الإمام الجليل الساهر بحق على خير هذه البلاد بواسطة الباروني (...) الذي أحسنت دول الحلفاء صنعا في تضييقها عليه حتَّى ساقه القدر إلى هذه البلاد رحمة ونصيرا"[٣].

---

١) رسالة من الباروني إلى الشيخ هاشل بن راشد المسكري بتاريخ ١٢ رجب ١٣٤٧. مخطوطة.
٢) مقال: أبناء عمان، وادي ميزاب، عدد ٣٠، السنة الأولى، ٦ أبريل ١٩٢٧، ص١.
٣) أبو اليقظان: سليمان باشا الباروني، ص٤١.

أمَّا الفئة المعارضة فتكوَّنت أساسا من المحافظين من الرؤساء والعلماء، خاصَّة من كانوا يشرفون على الأوقاف؛ لأنَّ التنظيمات الجديدة كانت تهدِّد مصالحهم الخاصَّة وتحرمهم من استغلال سلطتهم وتوظيفها لخدمة أغراضهم. فبمجرَّد ما أخذ الباروني في تنظيم المالية رفع هؤلاء عقيرتهم بالاستنكار، وبأساليب مختلفة، فمن قائل إنَّ هذا الأمر بدعة، ومن قائل إنَّه مخالف للعادات، ومن قائل إنَّه من عمل النصارى. علَّق أبو اليقظان على موقف هذه الفئة في مقال بعنوان "أنباء عُمان" فكتب: "بلغنا أنَّه وقعت معارضة من بعض رجال الدين على حركة الإصلاح التي قام بها المصلحون الأحرار من العُمانيِّين وعلى رأسهم عظمة الإمام الخليلي ووزيره الأكبر الشيخ سليمان باشا الباروني (...) ونحن نأسف من وجود شيء يسمَّى معارضة (...) ولكن هو الإلف والعادة وتعشُّق كلِّ قديم وإن كان فاسدا أو عاطلا. ويجعل الإنسان في كلِّ زمان ومكان عدوا لدودا لكل جديد وإن كان منبعا لسعادتي الدنيا والآخرة"[1]. بلغت هذه المعارضة درجة الاحتجاج لدى الإمام خاصَّة بعد تضرر مصالح الفئات التي تحظى بامتيازات حرمت منها بمجرد ما تولى الباروني شؤون الدولة فكيف كان موقف الإمام منها؟

**موقف الإمام من الاحتجاجات:**

وفق ما ذكرناه سابقا لا يمكن أن نتوقع من رجل يحمل هاجس حماية دولته ويتبنى مشروع إصلاحها إلاَّ معارضة هذه الاحتجاجات، ومواصلة العمليَّة التحديثية، ومساندة الباروني فيما بدأ فيه. وقد قام الإمام بعقد اجتماع عام في مجلسه وضح فيه الباروني أمام عامَّة الناس مشروعه الإصلاحي وبيَّن ملامحه، فتحدث في كلِّ مواضيع التنظيمات التي قام بها ودورها في إنقاذ الدولة من حالة الركود التي تعيشها، وأشار في أكثر من مناسبة إلى وضع المناطق الدَّاخليَّة التي تفتقد إلى أبسط مرافق الحياة مثل الصحَّة والتعليم، وأكد على ضرورة الإصلاحات ودورها في تحسين الأوضاع في المنطقة.

ولا يستغرب هذا الموقف من شخصيَّة تؤمن بالتحديث، وتعادي الجمود والتخلف، وهو ما تجسد أساسا في تبني مشروع الباروني التحديثي. ولعل صواب

١) مقال: أنباء عمان، وادي ميزاب، عدد ٥٥، السنة الثانية، ٣ نوفمبر ١٩٢٧، ص٢.

فكر الباروني وتأييد الإمام الذي يشاركه الأفكار نفسها جعل هذه المعارضة تفشل وتحث الشخصيتين على مواصلة ما عزما عليه بحماس أكثر.

**الظروف الصحية للشيخ الباروني وانعكاسها على مشاريعه الإصلاحيَّة:**

لم يكتمل مشروع الباروني الإصلاحي بسبب حمى الملاريا التي كانت تعاوده باستمرار؛ وهو ما جعله ينقطع في كلِّ مرة عن مباشرة أعماله. ونصحه الأطباء بضرورة مغادرة عُمان إلى الهند أو تونس للتداوي، لكن دول الحلفاء رفضت ذلك، فكاتب الباروني في ذلك ملك العراق فيصل بن الحسين (حكم: ١٣٤٠-١٣٥٢هـ/ ١٩٢١-١٩٣٣م) وحصل منه على إذن بدخول العراق قصد التداوي. كتب الباروني: "سأذهب إلى بغداد إن شاء الله في أواخر رمضان بعد إتمام الطبقة الأولى من المدرسة؛ لأنَّ هذا الألم أتعبني ولازمني وأخاف عاقبته"[١].

إنَّ سفر الباروني المتكرِّر للتداوي وغيابه دفع العديد من الصحف إلى تأويل غيابه عن عُمان بعزله عن منصب الإشراف السياسي الذي كان يشغله بعد توتُّر العلاقة بينه وبين الإمام. ويبدو أن هذه الإشاعات صدرت عمَّن كانوا يعارضون إصلاحات الباروني أو من يخالفون سياسة الاتحاد التي يؤمن بها وطالما دعا إليه. إن السبب الحقيقي وراء سفر الباروني هو اهتمامه بعائلته، التي مكنتها إيطاليا من الالتحاق به سنة ١٩٣١م (١٣٥٠هـ) بعد أن حُرم منها تسع سنوات، لكنَّ حرَّ عُمان ورطوبتها تسبَّبا في إصابة جميع أفراد العائلة بالملاريا ممَّا اضطرَّه إلى السفر عن عُمان.

كتب الباروني في هذا الشأن قائلا: "ظننت أنِّي ظفرت بالغنيمة واجتمع الشمل المتشتِّت منذ عشر سنين وحصل الأنس والراحة وتخلَّصت من الأسر (...) وما كادت العائلة تصل مسقط حتَّى أصاب أفرادها جملة وهم ثمانية حمى الملاريا، حتَّى ضمَّت إليهم إبراهيم الذي سبقهم فصاروا تسعة. وبعد معاناة شتَّى الآلام، وتردُّد الأطبَّاء، ووفاة جدَّة الأولاد، واختلال عقل إحدى البنات، واعتلال صحَّة الباقين، اضطررت إلى نقلهم إلى بغداد بعد أن قالت لي الطبيبة: إنَّ هؤلاء كلَّهم أصبحوا لقمة بين شفتي الموت، فإذا لم تخرجهم مع الباخرة المتوجِّهة بعد يومين

١) أبو اليقظان: سليمان باشا الباروني، ص٤٦-٤٧.

إلى البصرة، فأنت ستقدِّم كل أسبوع واحدا إلى المقبرة إذ لم يعد الدواء مفيدا لهم"[١].

كذَّبت جريدة "الفلق"[٢] خبر الجفوة بين الباروني والإمام، وعلَّلت غيابه عن الساحة السِّياسيَّة العُمانيَّة في تلك الفترة بانشغاله بأمور العائلة التي يتطلب علاجها تنقلا خارج عُمان. كما ورد التبرير نفسه في جريدة "النور"[٣] التي عَدَّت خبر توتر العلاقة بين الباروني والإمام إشاعة بثَّها بعض المتآمرين المتمرِّدين المستفيدين من غياب الباروني[٤]، لاسيما الطبقة التي تضررت من الإصلاحات التي قضت على مصالحها.

إنَّ غياب الباروني لا يعني انقطاعه الكلِّيَّ عن مباشرة مهامِّه السِّياسيَّة، فقد كان على علم بأوضاع عُمان ومتابعا لكل المستجدات. إضافة إلى أن الإمام كان يتواصل معه ويستشيره في أغلب المسائل التي تتعلَّق بالسياسة والتحديث، ويصغي إلى نصائحه، ويطبِّق قراراته كلما تطلب الوضع ذلك؛ وهو ما يعكس العلاقة الوطيدة التي تربط بين الشخصيتين والقائمة على الثقة والتشاور، ويؤكد امتداد جسور التواصل بينهما.

**خاتمة:**

ساعد التناغم الفكري والاشتراك في الرؤية السِّياسيَّة بين الإمام الخليلي والباروني على تشخيص مكامن الخلل في الدولة والعمل على تغيير الأوضاع الدَّاخليَّة لها، كما جنَّبها الخطر الخارجيَّ بعد أن وطَّدت علاقاتها مع دول الجوار، وعملت على توحيد القبائل داخلها. وتعد فترة إمامة محمَّد بن عبد الله الخليلي التي استوزر فيها الباروني نقطة مضيئة في تاريخ عُمان؛ لأنَّها عكست تضافر جهود الشخصيتين من أجل البدء في مشروع التحديث والحفاظ على استقلال المنطقة.

---

١) المرجع نفسه، ص٨٢-٨٣.

٢) (الفلق) جريدة أدبيّة سياسيَّة أخلاقية زراعية أسبوعية لصاحبها محمَّد بن هلال البرواني، زنجبار، مطبعة الفلق، ١٩٢٨.

٣) (نور الإسلام) مجلة دينية علمية أخلاقية تاريخية شهرية، رئيس تحريرها محمَّد الخضر حسين، القاهرة، مشيخة الأزهر الشريف ١٩٣١، مطبعة يوسف كوي.

٤) وثيقة عدد ٨٣، ملف الباروني، مركز جهاد الليبيين، طرابلس.

**المصادر والمراجع:**


- أبو اليقظان، إبراهيم: سليمان الباروني باشا في أطوار حياته، المطبعة العربيَّة، الجزائر، ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م.
- اطفيش، أبو إسحاق: الدسائس في جزيرة العرب، مجلة المنهاج، ج١.
- الباروني، زعيمة: الباروني صفحات خالدة من الجهاد، مطابع الاستقلال الكبرى، الجزائر، ١٩٩١.
- الداود، محمود علي: محاضرات عن الخليج العربي والعلاقات الدولية ١٨٩٠ - ١٩١٤، معهد الدراسات العربيَّة العالية، القاهرة، ١٩٦١.
- ردٌّ وتعليق، جريدة وادي ميزاب، ٢٥ أوت ١٩٢٨، السنة ٢، عدد ٦٨، ص ١.
- رسالة من الباروني إلى الشيخ هاشل بن راشد المسكري بتاريخ ١٢ رجب ١٣٤٧. مخطوطة.
- مقال: أبناء عُمان، وادي ميزاب، عدد ٣٠، السنة الأولى، ٦ أبريل ١٩٢٧.
- مقال: أبناء عُمان، وادي ميزاب، عدد ٥٧ السنة الثانية، ١٧ نوفمبر ١٩٢٧.
- مقال: أنباء عُمان، وادي ميزاب، عدد ٥٥، السنة الثانية، ٣ نوفمبر ١٩٢٧.
- مقال: سليمان باشا الباروني يعيَّن وزيرا لمملكة عُمان، جريدة وادي ميزاب، عدد ٤ السنة الأولى، ٢٢ أكتوبر ١٩٢٦.
- وثيقة عدد ٨٣، ملف الباروني، مركز جهاد الليبيين، طرابلس.